مكتبة الخضراء للأطفال

مُغامَرات السّندباد البَحْري

الرّحْلة الرّابعَة

تأليف : قاسم بن مهني

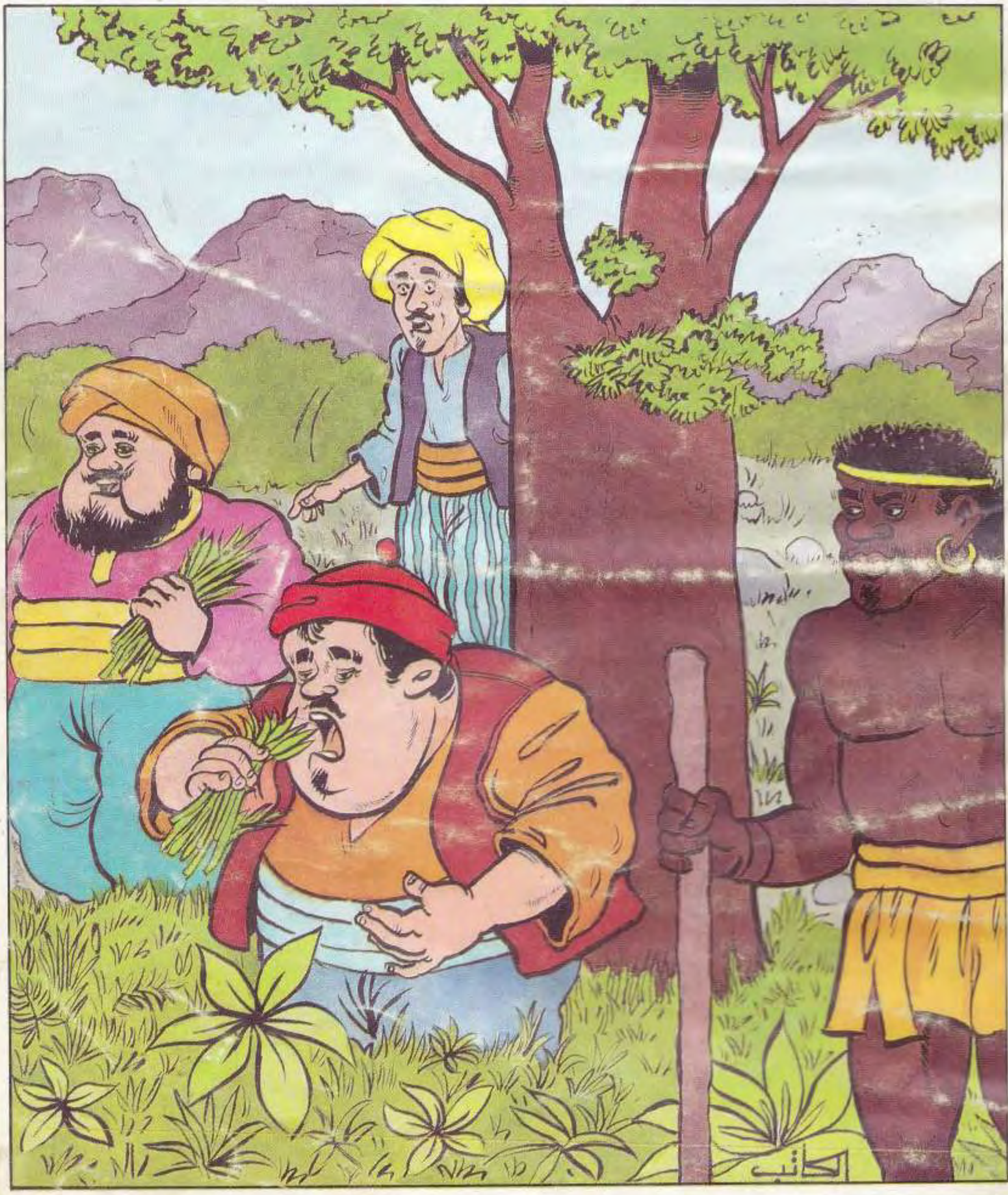

دار اليمامة للنشر والتوزيع - تونس

مكتبة الخضراء للأطفال

مُغامَرات السّندباد البَحْري

الرّحْلة الرّابعَة

تأليف: قاسم بن مهنّي
رسوم: المنصف الكاتب
خطوط: المنجي عمّار

دار اليمامة للنشر والتوزيع - تونس

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

وَلَمَّا حَضَرَ ٱلْحَمَّالُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلرَّابِعِ قَالَ لَهُ ٱلسِّنْدَبَادُ ٱلْبَحْرِيُّ:

لَقَدْ عَاوَدَنِي ٱلْحَنِينُ إِلَى ٱلسَّفَرِ، وَمَالَتْ نَفْسِي إِلَى تَعَاطِي ٱلتِّجَارَةِ، فَحَمَلْتُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْبِضَاعَةِ إِلَى ٱلْمِينَاءِ، وَشَحَنْتُهَا فِي إِحْدَى ٱلسُّفُنِ، ثُمَّ ٱمْتَطَيْتُهَا مَعَ بَعْضِ ٱلتُّجَّارِ، وَلَمَّا حَانَ وَقْتُ ٱلْإِبْحَارِ، اِنْطَلَقَتْ عَلَى بَرَكَةِ ٱللَّهِ، تَنْزَلِقُ عَلَى صَفْحَةِ ٱلْمَاءِ.

كَانَتِ ٱلسَّفِينَةُ تَجُوبُ ٱلْبَحْرَ ٱلشَّرْقِيَّ، تَدْفَعُهَا رِيَاحٌ هَادِئَةٌ، لَيِّنَةٌ، فَطَابَتْ لَنَا ٱلرِّحْلَةُ، وَٱنْصَرَفَ بَعْضُنَا إِلَى ٱلتَّفَرُّجِ عَلَى مَخْلُوقَاتِ ٱلْبَحْرِ ٱلْعَجِيبَةِ، وَٱهْتَمَّ ٱلْآخَرُونَ بِسَرْدِ ٱلْحِكَايَاتِ، وَإِنْشَادِ ٱلْأَشْعَارِ، وَتَبَادُلِ ٱلْفُكَاهَاتِ.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ ٱلْأَيَّامِ، بَيْنَمَا كُنَّا نَتَجَاذَبُ أَطْرَافَ ٱلْحَدِيثِ، إِذْ أَبْصَرْنَا ٱلرُّبَّانَ يَطْوِي ٱلْأَشْرِعَةَ، وَيَرْمِي ٱلْمَرَاسِيَ، فَسَأَلْنَاهُ حَائِرِينَ:

ـ مَا حَدَثَ؟

ـ لَقَدْ تَغَيَّرَ ٱتِّجَاهُ ٱلرِّيحِ فَجْأَةً، وَأَخْشَى أَنْ تَثُورَ عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ.

وَٱنْهَمَكَ فِي عَمَلِهِ، تَبْدُو عَلَى وَجْهِهِ عَلَامَاتُ ٱلْخَوْفِ وَٱلذُّعْرِ، فَمَا هِيَ إِلَّا مُدَّةٌ قَصِيرَةٌ حَتَّى ثَارَ إِعْصَارٌ قَوِيٌّ، فَهَاجَ ٱلْبَحْرُ، وَٱضْطَرَبَ ٱلْمَوْجُ، وَذُعِرَ ٱلنَّاسُ، وَأَخَذُوا يَبْتَهِلُونَ إِلَى ٱللَّهِ أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِنْ شَرِّ هَذِهِ ٱلْعَاصِفَةِ.

كَانَتِ ٱلْأَمْوَاجُ ٱلْعَاتِيَةُ كَٱلْجِبَالِ ٱلشَّاهِقَةِ، تَتَسَابَقُ إِلَى ٱلسَّفِينَةِ، وَتُدَاهِمُهَا مِنْ كُلِّ ٱلْجِهَاتِ، تَارَةً تَرْتَفِعُ بِهَا إِلَى أَعْلَى،

وَأُخْرَى تَدْفَعُهَا إِلَى أَعْمَاقِ ٱلْبَحْرِ، وَظَلَّتْ تَلْعَبُ بِهَا مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ، ثُمَّ حَطَّمَتْهَا. فَغَاصَتِ ٱلْبِضَاعَةُ، وَغَرِقَ جُلُّ ٱلرُّكَّابِ، وَتَعَلَّقَ مَنْ نَجَا مِنْهُمْ بِٱلْأَخْشَابِ.

لَمْ أَسْتَسْلِمْ لِلْأَمْوَاجِ، بَلْ أَخَذْتُ أُقَاوِمُهَا، رَغْمَ عُنْفِهَا، وَلَمَّا وَجَدْتُ خَشَبَةً تَطْفُو فَوْقَ ٱلْمَاءِ، تَشَبَّثْتُ بِهَا، فَسَارَتْ بِي حَيْثُ لَا أَدْرِي، وَأَنَا أَنْظُرُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ حَوْلِي، لِأَرَى مَا صَنَعَتِ ٱلْعَوَاصِفُ بِرِفَاقِي.

بَعْدَ أَيَّامٍ، اِنْتَهَيْنَا إِلَى سَاحِلِ جَزِيرَةٍ مَجْهُولَةٍ، وَنَحْنُ نَكَادُ نَمُوتُ مِنَ ٱلْجُوعِ وَٱلتَّعَبِ، فَتَهَالَكْنَا عَلَى ٱلرِّمَالِ، طَلَبًا لِلرَّاحَةِ، وَلَمَّا ٱسْتَعَدْنَا شَيْئًا مِنْ نَشَاطِنَا، قُمْنَا، وَسِرْنَا هَائِمِينَ عَلَى وُجُوهِنَا، نَبْحَثُ عَنِ ٱلْغِذَاءِ، فَلَمْ نَجِدْ إِلَّا ٱلْأَعْشَابَ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا مَا سَدَّ رَمَقَنَا، وَشَرِبْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ ٱلْعَذْبِ مَا شَفَى غَلِيلَنَا، ثُمَّ عُدْنَا إِلَى ٱلشَّاطِئِ، وَٱضْطَجَعْنَا عَلَى ٱلرِّمَالِ، فَٱسْتَغْرَقْنَا فِي نَوْمٍ، لَمْ نُفِقْ مِنْهُ إِلَّا فِي ٱلْغَدِ بَعْدَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ.

نَهَضْنَا عَلَى ٱلْفَوْرِ، وَغَسَلْنَا وُجُوهَنَا وَأَطْرَافَنَا، وَمَشَيْنَا فِي أَرْجَاءِ ٱلْجَزِيرَةِ نَكْتَشِفُهَا، وَنَطَّلِعُ عَلَى مَا فِيهَا، وَلَمَّا ٱنْتَهَيْنَا إِلَى رَبْوَةٍ عَالِيَةٍ، بَدَتْ لَنَا بِنَايَةٌ شَاهِقَةٌ، فَٱنْصَرَفْنَا إِلَيْهَا، نُمَنِّي أَنْفُسَنَا بِٱلشِّبَعِ.

لَمَّا أَشْرَفْنَا عَلَى ٱلْقَصْرِ، خَرَجَ إِلَيْنَا عَدَدٌ مِنَ ٱلرِّجَالِ ٱلسُّودِ، عُرَاةً، وَٱسْتَقْبَلُونَا أَحَرَّ ٱلِٱسْتِقْبَالِ، وَأَخَذُونَا إِلَى مَلِكِهِمْ، فَرَحَّبَ بِقُدُومِنَا، وَأَكْرَمَ مَثْوَانَا،

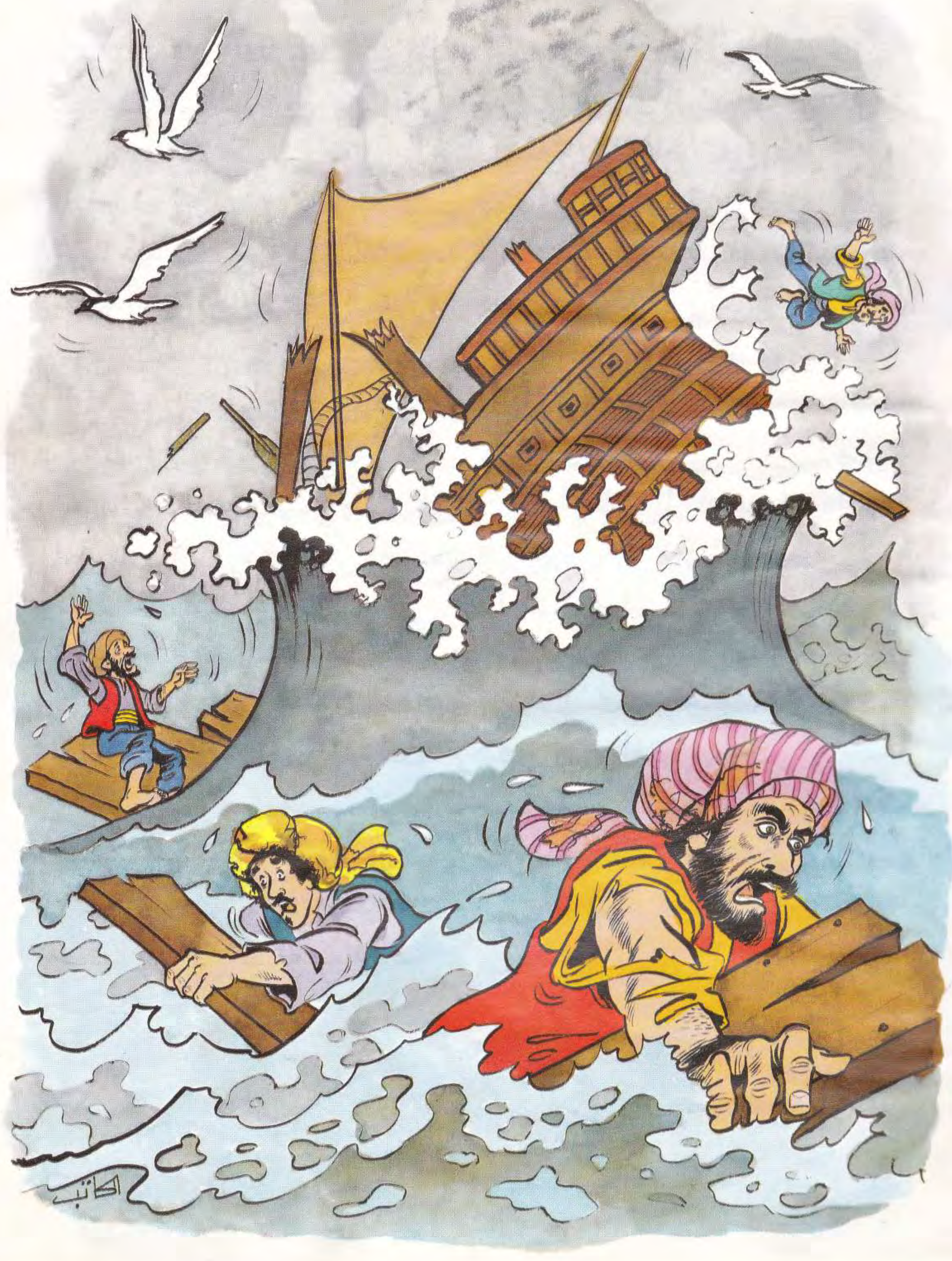
الكاتب

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَحَدِ جُلَسَائِهِ إِشَارَةً خَاصَّةً، فَقَدَّمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا حَشِيشَةً، وَدَعَانَا إِلَى أَكْلِهَا عَلَى أَنَّهَا مِنْ مَرَاسِمِ ٱلضِّيَافَةِ عِنْدَهُمْ.

تَظَاهَرْتُ بِتَنَاوُلِ ٱلْحَشِيشَةِ، أَمَّا أَصْحَابِي فَبَادَرُوا بِأَكْلِهَا فِعْلًا، فَزَاغَتْ أَبْصَارُهُمْ، وَشَرَدَتْ عُقُولُهُمْ، عِنْدَ ذَلِكَ جَاءَهُمُ ٱلسُّودُ بِدُهْنِ ٱلنَّارْجِيلِ، وَسَقَوْهُمْ مِنْهُ ٱلشَّيْءَ ٱلْكَثِيرَ، فَصَارُوا كَٱلْبُلْهِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ دَهَنُوا بِمَا بَقِيَ مِنْهُ أَجْسَادَهُمْ، ثُمَّ قَدَّمُوا لَهُمُ ٱلْأُرْزَ ٱلْمَطْبُوخَ بِهَذَا ٱلدُّهْنِ، فَأَخَذُوا يَزْدَرِدُونَهُ كَٱلْمَجَانِينِ.

لَمْ أَتَنَاوَلْ مِنْ هَذَا ٱلْأُرْزِ إِلَّا ٱلْقَلِيلَ، رَغْمَ مَا بِي مِنَ ٱلْجُوعِ ٱلشَّدِيدِ، وَكُنْتُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ أَنْظُرُ إِلَى أَصْحَابِي، وَأَرْثِي لِحَالِهِمْ، وَأَخْتَلِسُ ٱلنَّظَرَ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ إِلَى هَؤُلَاءِ ٱلْعُرَاةِ، فَيَمْتَلِئُ قَلْبِي بِٱلْفَزَعِ، لِبَشَاعَةِ مَنَاظِرِهِمْ، وَدَمَامَةِ خِلَقِهِمْ.

بَعْدَ قَلِيلٍ، أَوْمَأَ ٱلْمَلِكُ إِلَى أَحَدِ جُلَسَائِهِ، فَسَاقَنَا أَمَامَهُ كَقَطِيعٍ مِنَ ٱلْخِرْفَانِ إِلَى ٱلْمَرَاعِي، فَمَا إِنْ حَلَلْنَا بِهَا حَتَّى أَخَذَ رِفَاقِي يَتَنَاوَلُونَ مَا يَجِدُونَ أَمَامَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْشَابِ، فَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ حَتَّى سَمِنَتْ أَبْدَانُهُمْ، أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ لَا آكُلُ إِلَّا مَا يَسُدُّ ٱلرَّمَقَ إِبْقَاءً عَلَى حَيَاتِي، فَٱشْتَدَّ هُزَالِي، وَنَتَأَتْ عِظَامِي، فَأَصْبَحَ ٱلرَّاعِي لَا يَهْتَمُّ بِي، وَيَتْرُكُنِي أَذْهَبُ حَيْثُ أُرِيدُ.

أَخَذْتُ أَتَجَوَّلُ فِي أَرْجَاءِ ٱلْجَزِيرَةِ، أَلْتَمِسُ لِنَفْسِي طَرِيقَ ٱلْخُرُوجِ، مِنْ دُونِ أَنْ يَتَفَطَّنَ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ

ٱلسُّودِ، وَفِي يَوْمٍ مِنَ ٱلْأَيَّامِ، لَمَّا ٱنْتَهَيْتُ إِلَى إِحْدَى ٱلرَّوَابِي ٱعْتَلَيْتُهَا، وَأَمْعَنْتُ ٱلنَّظَرَ حَوْلَهَا، فَأَبْصَرْتُ عَلَى سَفْحِهَا أُنَاسًا يَرْعَوْنَ ٱلْعُشْبَ كَٱلْحَيَوَانَاتِ، يَرْقُبُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ.

كَانَ هَؤُلَاءِ ٱلنَّاسُ فَاقِدِي ٱلْعُقُولِ كَرِفَاقِي، لَا يَدْرُونَ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَصْنَعُونَ، وَقَدْ تَضَخَّمَتْ أَجْسَامُهُمْ، وَٱكْتَنَزَتْ شَحْمًا وَلَحْمًا.

كَانَ ٱلرَّجُلُ ٱلْمُكَلَّفُ بِحِرَاسَتِهِمْ يَنْظُرُ إِلَيَّ مُسْتَغْرِبًا، وَلَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّنِي أَتَمَتَّعُ بِمَدَارِكِي ٱلْعَقْلِيَّةِ، وَأَتَصَرَّفُ فِي حَوَاسِي تَصَرُّفَ ٱلسَّلِيمِ، أَشَارَ إِلَيَّ بِٱلدُّنُوِّ مِنْهُ، فَسِرْتُ إِلَيْهِ تَتَنَازَعُنِي مَشَاعِرُ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّجَاءِ، وَمَا إِنْ وَقَفْتُ قُدَّامَهُ حَتَّى قَالَ لِي:

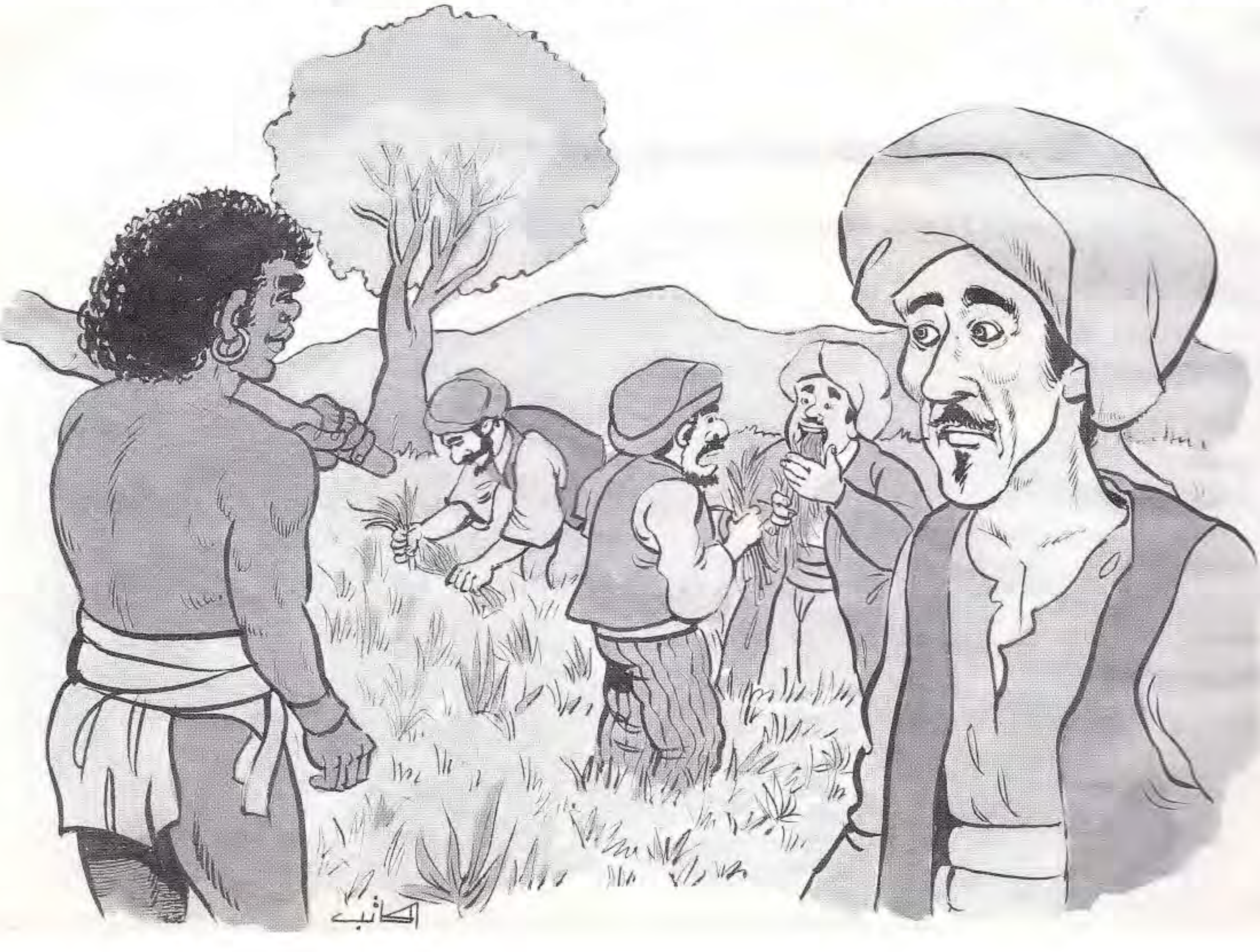

ـ أَتَدْرِي لِمَ أَسُوقُ كُلَّ يَوْمٍ هَؤُلَاءِ ٱلرِّجَالَ إِلَى ٱلْمَرَاعِي ؟

ـ لَا .

ـ لِتَزْدَادَ أَجْسَامُهُمْ سَمَانَةً ، وَضَخَامَةً ، لِأَنَّ مَلِكَنَا وَحَاشِيَتَهُ لَا يَسْتَسِغُونَ إِلَّا ٱللَّحْمَ ٱلسَّمِينَ ، وَهُمْ يُفَضِّلُونَهُ مَطْبُوخًا ، أَمَّا سَائِرُ ٱلنَّاسِ فَيَأْكُلُونَهُ نِيًّا.

اِقْشَعَرَّ بَدَنِي ، وَقُلْتُ لَهُ :

ـ أَتَأْكُلُونَ ٱللَّحْمَ ٱلْبَشَرِيَّ ؟!

ـ إِنَّهُ ٱلطَّعَامُ ٱلْمُفَضَّلُ فِي هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ، فَٱنْجُ بِنَفْسِكَ وَإِلَّا أُكِلْتَ .

ـ هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لِلْهَرَبِ ؟

ـ اُسْلُكْ ذَلِكَ ٱلْمَعْبَرَ ، فَإِنَّهُ سَيُوصِلُكَ إِلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلرَّئِيسِيَّةِ.

ـ شُكْرًا لَكَ عَلَى هَذِهِ ٱلنَّصِيحَةِ .

وَسِرْتُ فِي ٱلطَّرِيقِ ٱلضَّيِّقَةِ، تَارَةً أَجْرِي ، وَأُخْرَى أَمْشِي ، وَلَمَّا عَضَّنِي ٱلْجُوعُ ٱلشَّدِيدُ بِنَابِهِ ، قَصَدْتُ أَحَدَ ٱلْحُقُولِ وَأَكَلْتُ مِنْ نَبَاتِ ٱلْأَرْضِ ، ثُمَّ وَاصَلْتُ ٱلسَّيْرَ غَيْرَ عَابِئٍ بِٱلْإِرْهَاقِ وَٱلتَّعَبِ. وَلَمَّا أَرْخَى ٱللَّيْلُ سُدُولَهُ عَلَى ٱلْكَوْنِ ، اِسْتَلْقَيْتُ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، إِلَّا أَنَّ ٱلنَّوْمَ لَمْ يَحُمْ حَوْلِي لِشِدَّةِ ٱلْخَوْفِ ، فَبَقِيتُ سَاهِرًا إِلَى مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ ، ثُمَّ سِرْتُ هَائِمًا عَلَى وَجْهِي ، قَرِيحَ ٱلْقَلْبِ ، إِلَى أَنْ رَمَتْ بِيَ ٱلْأَقْدَارُ فِي بَلَدٍ فَسِيحِ ٱلْأَرْجَاءِ.

مَضَتْ سَبْعَةُ أَيَّامٍ ، وَأَنَا أَسِيرُ نَهَارًا ، وَأَبِيتُ لَيْلًا

عَلَى أَغْصَانِ ٱلْأَشْجَارِ. وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّامِنِ بَدَتْ لِي ضَيْعَةٌ فَسِيحَةٌ، فَقَصَدْتُهَا، وَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهَا ٱخْتَفَيْتُ خَلْفَ جُذُوعِ ٱلْأَشْجَارِ، وَأَخَذْتُ أَتَأَمَّلُ فِي عَدَدٍ مِنَ ٱلرِّجَالِ، يَنْتَقِلُونَ جِيئَةً وَذَهَابًا بَيْنَ ٱلنَّبَاتَاتِ، وَلَمَّا تَحَقَّقْتُ أَنَّهُمْ تُجَّارُ ٱلْفُلْفُلِ، كِدْتُ أَطِيرُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْفَرَحِ، وَهَرْوَلْتُ نَحْوَهُمْ مُنْبَسِطَ ٱلْأَسَارِيرِ، وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ بِتَحِيَّةِ ٱلْإِسْلَامِ، فَرَدُّوا عَلَيَّ ٱلسَّلَامَ مُبْتَسِمِينَ، وَرَحَّبُوا بِقُدُومِي، وَسَأَلُونِي عَنْ قِصَّتِي، فَرَوَيْتُهَا لَهُمْ، فَقَالُوا لِي:

ـ تَكَادُ تَكُونُ نَجَاتُكَ مِنْ آكِلِي لُحُومِ ٱلْبَشَرِ مُعْجِزَةً، إِذْ لَمْ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْ جَزِيرَتِهِمْ سَالِمًا.

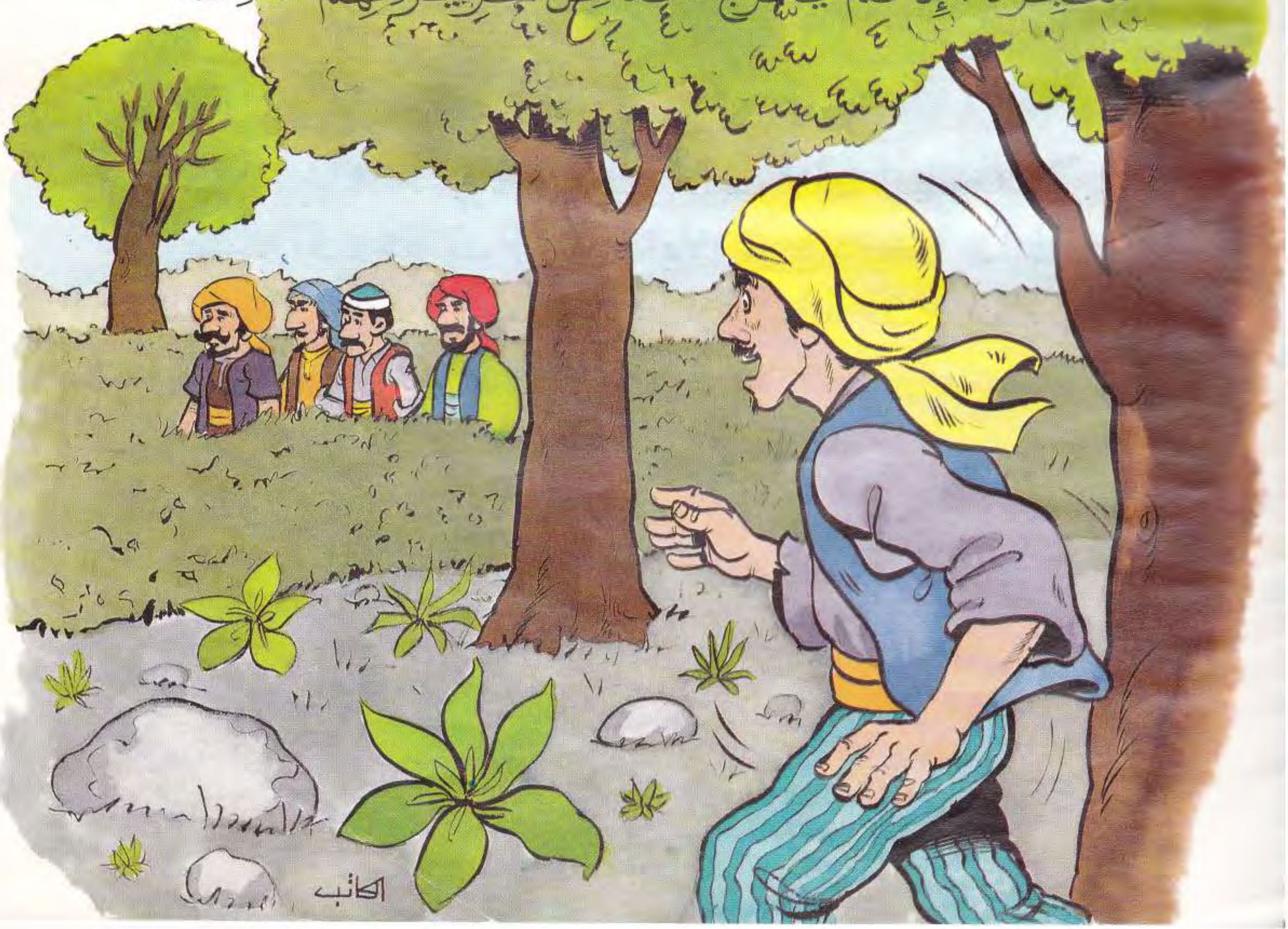

ـ لَا أَحْمَدُ إِلَّا ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَّصَنِي مِنْ شَرِّهِمْ.

ـ أَتُرِيدُ أَنْ نَأْخُذَكَ إِلَى ٱلْمَلِكِ ؟

ـ بَلْ يَسُرُّنِي أَنْ أَمْثُلَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

ـ تَعَالَ مَعَنَا إِلَيْهِ.

ـ لِنَنْصَرِفْ عَلَى بَرَكَةِ ٱللَّهِ.

وَسِرْنَا بَيْنَ ٱلْمَزَارِعِ وَٱلْحُقُولِ، لَا نَتَحَدَّثُ إِلَّا عَنْ أُولَئِكَ ٱلسُّودِ، وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ، اِنْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ، وَاسِعَةِ ٱلشَّوَارِعِ، عَالِيَةِ ٱلْبُنْيَانِ. فَسَلَكْنَا ٱلشَّارِعَ ٱلْفَسِيحَ، ٱلنَّظِيفَ، ٱلْجَمِيلَ، وَلَمَّا بَلَغْنَا ٱلْقَصْرَ ٱلْعَظِيمَ، أَدْخَلَنِي ٱلتُّجَّارُ عَلَى ٱلْمَلِكِ، فَٱحْتَفَى بِي، وَأَكْرَمَنِي غَايَةَ ٱلْإِكْرَامِ، وَهَنَّأَنِي بِٱلسَّلَامَةِ، وَقَدَّمَنِي إِلَى وُزَرَائِهِ وَعُظَمَاءِ دَوْلَتِهِ.

أَقَمْتُ بِٱلْقَصْرِ ضَيْفًا عِنْدَ ٱلْمَلِكِ، فَغَمَرَنِي بِوُدِّهِ وَإِحْسَانِهِ، وَسَعَى إِلَى ٱلتَّرْفِيهِ عَنِّي بِمَا تَوَفَّرَ عِنْدَهُ مِنَ ٱلْوَسَائِلِ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَصْطَحِبُنِي مَعَهُ فِي ٱلْجَوْلَاتِ ٱلَّتِي يَقُومُ بِهَا فِي ٱلْعَاصِمَةِ، فَلَاحَظْتُ أَنَّ ٱلسُّكَّانَ عَلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلتَّقَدُّمِ، وَحُسْنِ ٱلْأَخْلَاقِ، وَقَدْ لَفَتَ نَظَرِي أَنَّهُمْ يَرْكَبُونَ ٱلْخُيُولَ مِنْ دُونِ سُرُوجٍ، وَلَا أَلْجِمَةٍ، فَسَأَلْتُ مَلِكَهُمْ عَنْ سِرِّ هَذَا ٱلْأَمْرِ، فَأَجَابَنِي:

ـ نَحْنُ لَا نَعْرِفُ ٱلسُّرُوجَ وَلَا ٱلْأَلْجِمَةَ.

ـ يَا جَلَالَةَ ٱلْمَلِكِ، أَتُرِيدُ أَنْ أَصْنَعَهَا لَكُمْ؟

ـ عَجِّلْ، وَلَكَ ٱلْمُكَافَآتُ ٱلْهَامَّةُ.

ـ سَأَشْرَعُ فِي عَمَلِي ٱلْآنَ.

وَٱسْتَعَنْتُ بِنَجَّارٍ وَحَدَّادٍ ، وَٱنْغَمَسْنَا فِي ٱلصِّنَاعَةِ، فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَاتٌ حَتَّى صَنَعْنَا ٱلسَّرْجَ ٱلْأَوَّلَ ٱلْجَمِيلَ، وَٱللِّجَامَ ٱلْحَسَنَ ٱلْبَدِيعَ ، فَأَخَذْتُهُمَا إِلَى ٱلْمَلِكِ، فَعَبَّرَ لِي عَنْ إِعْجَابِهِ بِهِمَا، وَشَكَرَنِي ، وَأَمَرَ لِي بِٱلْهَدَايَا ٱلثَّمِينَةِ ، وَقَرَّبَنِي مِنْ مَجْلِسِهِ.

وَمَا إِنْ رَأَى ٱلْوُزَرَاءُ، وَٱلْقُوَّادُ، وَعُظَمَاءُ ٱلدَّوْلَةِ مَا صَنَعْتُ لِلْمَلِكِ حَتَّى طَالَبُونِي بِأَنْ أَصْنَعَ لَهُمُ ٱلسُّرُوجَ وَٱلْأَلْجِمَةَ، فَتَفَرَّغْتُ لِصُنْعِهَا ، وَقَدْ دَرَّتْ عَلَيَّ هَذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ثَرْوَةً طَائِلَةً، وَشُهْرَةً وَاسِعَةً.

أَرَادَ ٱلْمَلِكُ أَنْ أُقِيمَ بِبَلَدِهِ، فَدَعَانِي ذَاتَ يَوْمٍ ، وَقَالَ لِي:

- أَيُّهَا ٱلْفَتَى، أَتَرْغَبُ فِي ٱلزَّوَاجِ مِنْ فَتَاةٍ جَمِيلَةٍ ، حَسْنَاءَ، تَنْتَسِبُ إِلَى أُسْرَةٍ عَرِيقَةٍ فِي ٱلْمَجْدِ وَٱلشَّرَفِ ؟

عَقَدَ ٱلْحَيَاءُ لِسَانِي ، فَإِذَا أَنَا مُطْرِقٌ إِلَى ٱلْأَرْضِ، لَا أَتَجَرَّأُ عَلَى إِجَابَةِ ٱلْمَلِكِ ، فَأَعَادَ عَلَيَّ سُؤَالَهُ مَرَّةً ثَانِيَةً ، عِنْدَئِذٍ أَجَبْتُهُ إِلَى طَلَبِهِ ، فَأَرْسَلَ مِنْ فَوْرِهِ رَسُولَهُ إِلَى ٱلْقَاضِي، وَٱلشُّهُودِ ، وَلَمَّا حَضَرُوا أَمَرَهُمْ بِكِتَابَةِ عَقْدِ زَوَاجِي، وَأَعَدَّ مَنْزِلًا لِإِقَامَتِي، أَثَّثَهُ بِأَثْمَنِ ٱلْأَثَاثِ ، وَأَنْفَسِ ٱلرِّيَاشِ، وَكَلَّفَ عَدَدًا مِنَ ٱلْعَبِيدِ بِٱلْقِيَامِ عَلَى خِدْمَتِي ، وَرَتَّبَ لِي جِرَايَةً مِنْ خِزَانَتِهِ ، فَتَنَعَّمْتُ بِلِينِ ٱلْعَيْشِ، مَعَ زَوْجَتِي شَرِيفَةِ ٱلنَّسَبِ ، عَالِيَةِ ٱلْقَدْرِ ، صَاحِبَةِ ٱلْعِفَّةِ وَٱلْجَمَالِ، وَٱلْجَاهِ وَٱلْمَالِ، وَقَدْ أَنْسَتْنِي مَا قَاسَيْتُهُ مِنَ ٱلشَّدَائِدِ وَٱلْأَهْوَالِ.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ ٱلْأَيَّامِ، تُوُفِّيَتْ زَوْجَةُ جَارِي ، فَذَهَبْتُ

إِلَى دَارِهِ لِأُعَزِّيَهُ، فَوَجَدْتُهُ يَبْكِي بُكَاءَ ٱلْفَطِيمِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ:

- أَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُطِيلَ عُمُرَكَ، وَيَرْحَمَ ٱلْفَقِيدَةَ، وَيُعَوِّضَكَ عَنْهَا خَيْرَ ٱلْعِوَضِ.

فَأَجَابَنِي وَهُوَ لَا يَنْقَطِعُ عَنِ ٱلْبُكَاءِ:

- مَتَى سَأَجِدُ عِوَضًا عَنْ زَوْجَتِي، وَأَنَا مُشْرِفٌ عَلَى ٱلْمَوْتِ؟

فَتَوَقَّعْتُ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ هَذَا ٱلْكَلَامَ، إِلَّا تَعْبِيرًا عَنْ حُزْنِهِ ٱلشَّدِيدِ لِفَقْدِ زَوْجَتِهِ، فَأَخَذْتُ أُسَلِّيهِ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ:

- هَوِّنْ عَلَيْكَ، وَإِلَّا عَرَّضْتَ نَفْسَكَ لِلْخَطَرِ.
- أَيُوجَدُ خَطَرٌ أَشَدُّ مِنَ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي يَنْتَظِرُنِي فِي ٱلْمَسَاءِ؟
- مَنْ أَنْبَأَكَ بِأَنَّكَ سَتَمُوتُ فِي هَذَا ٱلْوَقْتِ؟
- أَلَا تَعْلَمُ أَنَّنِي سَأُدْفَنُ حَيًّا مَعَ زَوْجَتِي جَرْيًا عَلَى ٱلْعَادَةِ؟
- أَيَّ عَادَةٍ تَعْنِي؟!
- لَقَدْ جَرَى ٱلْعَمَلُ فِي هَذَا ٱلْبَلَدِ عَلَى دَفْنِ ٱلزَّوْجَيْنِ مَعًا عِنْدَمَا يَمُوتُ أَحَدُهُمَا.
- أَحَقًّا مَا تَقُولُ؟
- إِنْ كُنْتَ لَا تُصَدِّقُنِي، فَسَلْ مَنْ شِئْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ يُنْبِئْكَ بِٱلْخَبَرِ ٱلْيَقِينِ.

وَسُرْعَانَ مَا تَأَكَّدْتُ مِنْ صِحَّةِ كَلَامِ هَذَا ٱلرَّجُلِ، عِنْدَمَا سَمِعْتُ ٱلنَّاسَ يُعَزُّونَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنْ زَوْجَتِهِ، فَٱمْتَلَأَ قَلْبِي بِٱلْحُزْنِ، وَأَخَذْتُ أُرَدِّدُ فِي سِرِّي: "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ، لَقَدْ نَجَوْتُ مِنْ شَرِّ ٱلسُّودِ، فَوَقَعْتُ فِي..." وَمَا ٱنْتَبَهْتُ إِلَّا وَٱلْمُنَادِي

يُرَدِّدُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «حَانَ وَقْتُ ٱلدَّفْنِ.» فَخَرَجْتُ مَعَ ٱلنَّاسِ لِتَشْيِيعِ ٱلزَّوْجَيْنِ، كَسِيرَ ٱلْفُؤَادِ، ضَيِّقَ ٱلصَّدْرِ.

وَلَمَّا ٱنْتَهَى ٱلْمَوْكِبُ ٱلْحَزِينُ ٱلْخَاشِعُ، إِلَى رَبْوَةٍ مُشْرِفَةٍ عَلَى ٱلْبَحْرِ، وُضِعَ ٱلنَّعْشُ قُرْبَ صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ، أَزَاحَهَا بَعْضُ ٱلرِّجَالِ عَنْ مَوْضِعِهَا، فَٱنْكَشَفَ جُبٌّ عَمِيقٌ، أُنْزِلَتْ فِيهِ ٱلْمَرْأَةُ مَعَ مَلَابِسِهَا وَحُلِيِّهَا، ثُمَّ جَاءَ دَوْرُ ٱلرَّجُلِ، فَجِيءَ بِهِ وَهُوَ يَبْكِي، وَرُبِطَ بِحَبْلٍ تَحْتَ إِبِطِهِ، وَأُدْلِيَ فِي ٱلْبِئْرِ مَعَ سَبْعَةِ أَرْغِفَةٍ، وَإِنَاءٍ مَمْلُوءٍ بِٱلْمَاءِ. وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى ٱلْقَاعِ، حَلَّ ٱلْحَبْلَ، فَسُحِبَ عَلَى ٱلْفَوْرِ، وَغُطِّيَتْ فُوهَةُ ٱلْبِئْرِ بِٱلصَّخْرَةِ ٱلْكَبِيرَةِ، وَعَادَ ٱلْمُشَيِّعُونَ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ، يَتَرَحَّمُونَ عَلَى ٱلزَّوْجَيْنِ رَفِيقَيِ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ.

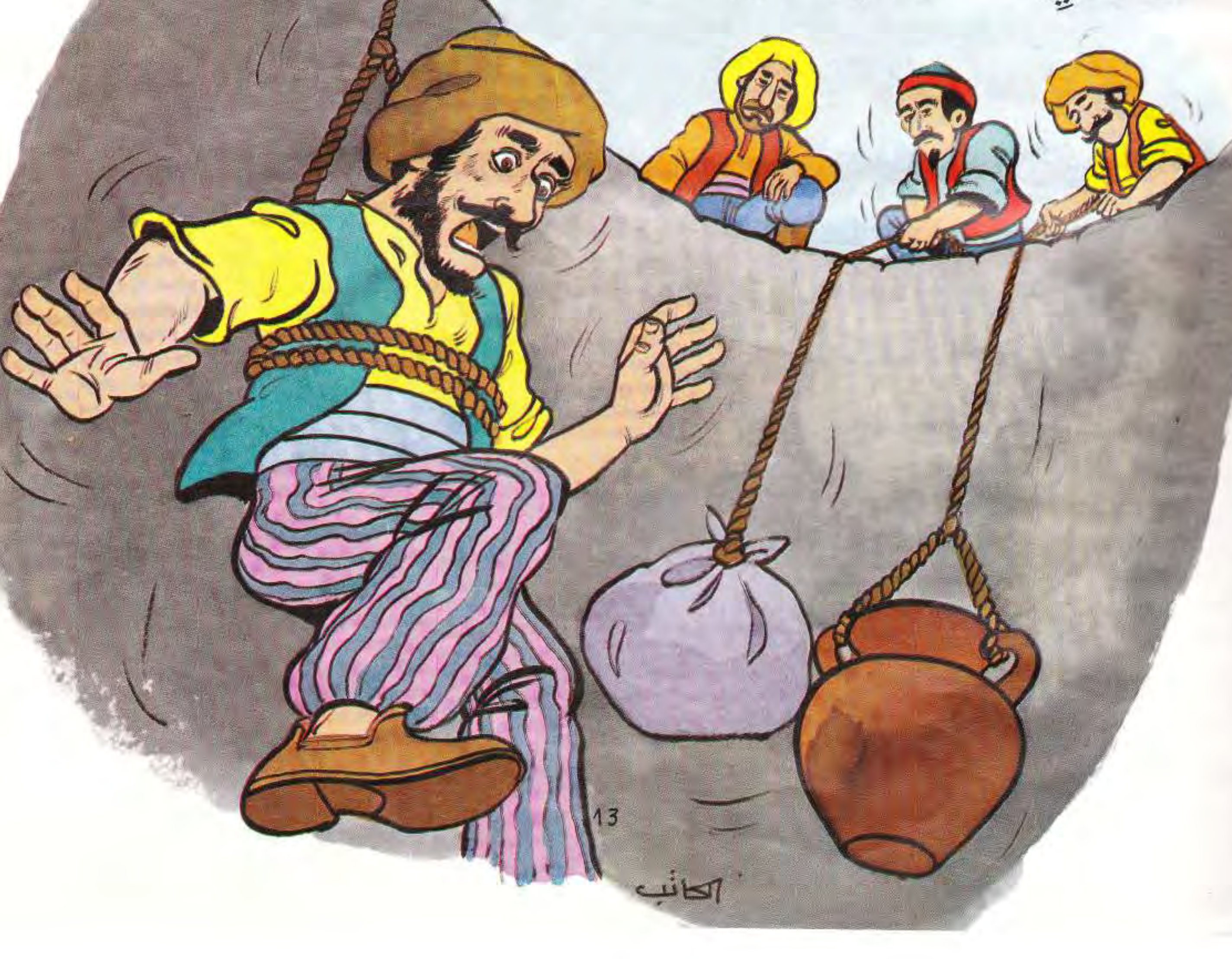

عُدْتُ مَعَ ٱلنَّاسِ مُطْرِقًا، وَاجِمًا، يَتَرَدَّدُ سُؤَالٌ عَلَى لِسَانِي، إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَتَجَرَّأْ عَلَى إِلْقَائِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ ٱلرِّفَاقِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ لِجَوَابِهِ وَقْعٌ لَا تَتَحَمَّلُهُ أَعْصَابِي.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ ٱلْأَيَّامِ دَخَلْتُ عَلَى ٱلْمَلِكِ، وَقُلْتُ لَهُ:

- يَاسَيِّدِي، لِمَ تَدْفُنُونَ ٱلْحَيَّ مَعَ ٱلْمَيِّتِ؟

- تِلْكَ عَادَتُنَا تَوَارَثْنَاهَا عَنْ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا، وَٱلْهَدَفُ مِنْهَا ٱلْإِبْقَاءُ عَلَى عَقْدِ ٱلزَّوَاجِ ٱلَّذِي لَا يَبْطُلُ عِنْدَنَا بِٱلْمَوْتِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ ٱلْإِنْصَافِ وَٱلْوَفَاءِ، أَنْ يَتَمَتَّعَ أَحَدُ ٱلزَّوْجَيْنِ بِلَذِيذِ ٱلْعَيْشِ بَعْدَ وَفَاةِ شَرِيكِ حَيَاتِهِ.

- وَٱلْغَرِيبُ، هَلْ تُعَامِلُونَهُ نَفْسَ ٱلْمُعَامَلَةَ

- إِنْ تَزَوَّجَ مِنَّا خَضَعَ لِطُقُوسِنَا، وَعَادَاتِنَا.

فَأَظْلَمَتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنَيَّ، وَخَرَجْتُ أَجُرُّ رِجْلَيَّ، وَسُرْعَانَ مَا تَمَثَّلَ لِي مَشْهَدُ جَارِي وَهُوَ يَتَدَلَّى فِي ٱلْجُبِّ ٱلْعَمِيقِ، بَعْدَ مَا رُمِيَ فِيهِ جُثْمَانُ زَوْجَتِهِ، فَٱقْشَعَرَّ بَدَنِي، وَٱرْتَعَدَتْ مَفَاصِلِي، وَفَكَّرْتُ فِي ٱلْهَرَبِ، إِلَّا أَنَّ ٱنْشِغَالِي بِشُؤُونِ ٱلْحَيَاةِ، دَفَعَ عَنِّي هَذِهِ ٱلْهَوَاجِسَ، فَأَرَاحَ نَفْسِي، وَطَمْأَنَ بَالِي.

وَبَعْدَ مُدَّةٍ، أُصِيبَتْ زَوْجَتِي بِمَرَضٍ مُفَاجِئٍ، قَضَى عَلَيْهَا فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، فَضَاقَتْ بِيَ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ. وَبَيْنَمَا كَانَ ٱلرِّجَالُ يُعَزُّونَنِي فِي نَفْسِي، وَفِي زَوْجَتِي، كَانَتِ ٱلنِّسَاءُ يُعْدِدْنَهَا لِلدَّفْنِ، لَقَدْ أَلْبَسْنَهَا أَفْخَرَ ٱلْمَلَابِسِ، وَزَيَّنَّهَا بِٱلْحُلِيِّ وَٱلْقَلَائِدِ، ثُمَّ وَضَعْنَهَا عَلَى ٱلنَّعْشِ، فَحَمَلَهُ ٱلرِّجَالُ عَلَى ٱلْأَكْتَافِ، وَقَادُونِي إِلَى ٱلْجُبِّ، وَلَمَّا ٱنْتَهَوْا إِلَيْهِ، بَادَرُوا

بِإِنْزَالِ ٱلْمَيِّتَةِ، ثُمَّ رَبَطُوا حَبْلًا تَحْتَ إِبِطِي، وَأَنَا أَصْرُخُ، وَأَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِأَنِّي غَرِيبٌ لَا أَرْضَى بِعَادَاتِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبَؤُوا بِي، وَأَنْزَلُونِي إِلَى قَعْرِ ٱلْبِئْرِ، وَأَنَا أَصِيحُ وَأُرَدِّدُ: «لَنْ أَحُلَّ وِثَاقِي، وَلَنْ أُعْطِيَكُمُ ٱلْحَبْلَ»، فَرَمَوْهُ إِلَيَّ، وَغَطَّوا ٱلْجُبَّ بِٱلصَّخْرَةِ وَٱنْصَرَفُوا.

أَلْقَيْتُ نَظَرَاتٍ حَوْلِي، فَلَمْ أَرَ إِلَّا ٱلْجُثَثَ ٱلْبَالِيَةَ، وَٱلْعِظَامَ ٱلنَّخِرَةَ، وَلَمْ أَسْتَنْشِقْ إِلَّا ٱلرَّوَائِحَ ٱلْكَرِيهَةَ، فَٱنْزَوَيْتُ فِي مَكَانٍ مُظْلِمٍ، أَتَأَسَّفُ شَدِيدَ ٱلْأَسَفِ عَلَى أَنَّنِي لَمْ أَمُتْ قَبْلَ أَنْ أُرْمَى فِي هَذَا ٱلْجُبِّ، ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: «مِنَ ٱلْعَجْزِ أَنْ أَسْتَسْلِمَ لِلْيَأْسِ»، وَقُمْتُ مِنْ فَوْرِي، أَتَحَسَّسُ مَا حَوْلِي، فَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ ٱلْجُبَّ مُتَّصِلٌ بِكَهْفٍ فَسِيحٍ، لَكِنَّهُ شَدِيدُ ٱلظُّلْمَةِ، فَٱنْتَقَلْتُ إِلَيْهِ.

كُنْتُ وَحِيدًا فِي ٱلْكَهْفِ، أَشْعُرُ بِٱلْوَحْشَةِ، وَٱلْغُرْبَةِ، وَٱلْحُزْنِ وَٱلْأَلَمِ، لَا أُفَكِّرُ إِلَّا فِي مَصِيرِي. وَعِنْدَمَا أَشْعُرُ بِٱلْجُوعِ ٱلشَّدِيدِ، آكُلُ شَيْئًا مِنَ ٱلْخُبْزِ، وَأَشْرَبُ جُرْعَةً مِنَ ٱلْمَاءِ، ثُمَّ أَسْتَلْقِي عَلَى ٱلْأَرْضِ أَنْدُبُ حَظِّي.

وَذَاتَ يَوْمٍ، بَيْنَمَا أَنَا غَارِقٌ فِي أَحْزَانِي، إِذْ سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدَامٍ تَقْتَرِبُ مِنِّي، فَٱمْتَلَأَ قَلْبِي بِٱلْفَزَعِ، وَٱلرُّعْبِ، وَحِرْتُ فِي أَمْرِي، وَأَخَذْتُ أُحَمْلِقُ حَوْلِي، فَأَبْصَرْتُ شَبَحَ حَيَوَانٍ يَجْرِي، فَهَرْوَلْتُ فِي إِثْرِهِ، فَرَأَيْتُهُ يَخْرُجُ مِنْ ثَقْبٍ ضَيِّقٍ، يَنْفُذُ مِنْهُ بَصِيصٌ مِنَ ٱلنُّورِ، فَٱنْشَرَحَ صَدْرِي، وَأَسْرَعْتُ إِلَى ٱلْمَنْفَذِ، وَأَخَذْتُ أُوَسِّعُهُ بِيَدِي، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْهُ، فَإِذَا أَنَا عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ.

جَلَسْتُ عَلَى ٱلرِّمَالِ ٱلذَّهَبِيَّةِ، أَمْلَأُ رِئَتَيَّ بِٱلْهَوَاءِ ٱلنَّقِيِّ،

وَأُسَرِّحُ نَظَرِي فِي ٱلْفَضَاءِ ٱلْبَعِيدِ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى ٱلْكَهْفِ، وَأَخَذْتُ مِنْهُ كَثِيرًا مِنَ ٱلزَّادِ، وَمَا قَدَرْتُ عَلَى حَمْلِهِ مِنَ ٱلْحُلِيِّ، وَٱلْجَوَاهِرِ، وَخَرَجْتُ إِلَى ٱلسَّاحِلِ، وَٱسْتَلْقَيْتُ عَلَى رِمَالِهِ، لَا يَتَوَقَّفُ لِسَانِي عَنْ حَمْدِ ٱللَّهِ وَشُكْرِهِ.

بَعْدَ سَاعَةٍ أَوْ تَزِيدُ، بَدَتْ لِي سَفِينَةٌ فِي ٱلْبَحْرِ، فَأَخَذْتُ أُلَوِّحُ لَهَا بِعِمَامَتِي، وَلَمَّا أَبْصَرْتُ زَوْرَقًا يَتَّجِهُ نَحْوِي، أَخَذْتُ أَنْتَظِرُ وُصُولَهُ بِفَارِغِ ٱلصَّبْرِ، فَمَا إِنِ ٱنْتَهَى إِلَى ٱلشَّاطِئِ حَتَّى نَقَلْتُ إِلَيْهِ مَا مَعِي مِنَ ٱلْبِضَاعَةِ، ثُمَّ ٱمْتَطَيْتُهُ، فَأَوْصَلَنِي إِلَى ٱلسَّفِينَةِ.

بَادَرْتُ بِشُكْرِ ٱلرُّبَّانِ ٱلَّذِي أَرْسَلَ إِلَيَّ هَذَا ٱلزَّوْرَقَ، وَقَدَّمْتُ لَهُ هَدِيَّةً مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ، فَرَفَضَهَا، وَٱعْتَذَرَ لِي قَائِلًا: لَا تَسْمَحُ لِي تَقَالِيدُ ٱلْمِهْنَةِ بِأَخْذِ ٱلْمُكَافَآتِ مِنَ ٱلْغَرْقَى، وَٱلضَّائِعِينَ، بَلْ تُوجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَتَكَفَّلَ بِغِذَائِهِمْ، وَكِسْوَتِهِمْ إِلَى أَنْ يَصِلُوا إِلَى دِيَارِهِمْ.

لَمْ أَدْرِ بِمَا أَثْنَيْتُ عَلَى ٱلرُّبَّانِ، ثُمَّ ٱنْغَمَسْتُ مَعَ ٱلرُّكَّابِ فِي تَبَادُلِ ٱلْفُكَاهَاتِ وَإِنْشَادِ ٱلْأَشْعَارِ، وَبَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَصَلْنَا إِلَى جَزِيرَةِ كَلَا وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ بِرَوَاجِ تِجَارَتِهَا، بِعْنَا فِيهَا سِلَعَنَا، وَٱبْتَعْنَا مِنْهَا ٱلْبَضَائِعَ ٱلنَّفِيسَةَ، ثُمَّ ٱنْتَقَلْنَا إِلَى غَيْرِهَا، وَمَا زِلْنَا نَتَحَوَّلُ مِنْ مَرْفَإٍ إِلَى آخَرَ، إِلَى أَنْ وَصَلْنَا إِلَى ٱلْبَصْرَةِ، فَوَدَّعْتُ رِفَاقِي وَوَاصَلْتُ ٱلسَّيْرَ إِلَى بَغْدَادَ أَحْمِلُ ٱلْأَمْوَالَ ٱلطَّائِلَةَ، وَٱلسِّلَعَ ٱلْكَثِيرَةَ، وَٱلتُّحَفَ ٱلثَّمِينَةَ، فَأَلْقَيْتُ بِهَا عَصَا ٱلتَّرْحَالِ، وَٱسْتَسْلَمْتُ لِلرَّاحَةِ بَعْدَ طُولِ ٱلْأَسْفَارِ.

1463
~~2606~~
~~1193~~

انتهى طبع هذا الكتاب
بالمطبعة الاساسية - بن عروس
في ١٥.٠٠٠ نسخة
فيفري 1993

مكتبة تونس الخضراء للأطفال

صدر ضمن هذه السلسلة

1 - مغامرات السّند باد البحري : "الرحلة الاولى"
2 - مغامرات السّندباد البحري : "الرحلة الثانية"
3 - مغامرات السّند باد البحري : "الرحلة الثالثة"
4 - مغامرات السّندباد البحري : "الرحلة الرابعة"
5 - مغامرات السّندباد البحري : "الرحلة الخامسة"
6 - مغامرات السّندباد البحري : "الرحلة السادسة"
7 - مغامرات السّند باد البحري : "الرحلة السابعة"
8 - الوزير والتّاجر
9 - صُرّة الجوهر
10 - بدران ويونان
11 - خبزة الأبناء
12 - الفيل "براتاب"
13 - الدّينصور الصغير
14 - الرّاعي الطّروب
15 - الصّيّاد الصّغير
16 - من حكم الشّيخ
17 - من أدوار جُحا
18 - الفيل الصّغير
19 - شبحُ رجُل مفقود
20 - لغز الخيط الأحمر

ISBN 9973 - 735 - 69 - 2
9973 - 735 - 73 - 0

الثمن : 0.700 د.ت.